الثقافة العالمية والخصوصية

فيما يلي نعرض بحثين يتطرقان الى قضيتي «الثقافة العالمية» و«الخصوصية». غير أنّ كاتب البحث الأوّل (وهو مغاربيٌّ، بل تونسيٌّ، على الأرجح) أغفل ذكرَ اسمه في أول بحثه وفي نهايته، أو ما قد يكون نهايته. ولذلك فإنّنا نكتفي الآن مؤقتاً بوضع علامة استفهام مكانَ اسمه (؟) الى أن يوافينا به في رسالةٍ قادمة... مع الاعتذار إليه، وإلى القارئ الكريم.

١ ـ الثقافة من بؤس الذاتية إلى شراسة الكونيّة

بقلم: (؟)

ليس من شكّ اليوم في أنّ الحديث عن الثقافة [١] المحلية أو القطرية، بل القوميّة نفسها، أضحى يفتقر إلى الإحاطة بما تُعرف به تلك الثقافةُ، لأنّها أصبحت تستعصي على التحديد وتتفلّت من الضبط والتدقيق. ولعلّ من عوامل الاستعصاء الرئيسيّة أنّ الخصوصيّة أو الذاتية أو التميّز لم تعد قرائنُها وعلاماتها تُدْرَكُ بيُسر.

والراجح أنّ التشكيلات المشهديّة الفولكوريّة لا تنتمي جدّياً إلى حقل الخصوصيّة الثقافية، وإنّما يقتضيها ظرفٌ حضاري عصيب أو موقفٌ سياسي خاصّ. ومن مشاهد الفرجة الفولكورية: المأكلُ والملبس[٢]. وقد يمتد الحرصُ على إظهار المشهد الفولكوري إلى المدى القومي، فيجعلهُ كياناتٍ متنافرةً، يغذّي صدامَها وَهْمُ التمايز، فيُضْحي الأمرُ مفاخرةً بالتشبث بالجذور ولعبةً سياسيّة تكتسب بها الجهاتُ المعنيّة مزيداً من الشّرعية، وهي من حيث تدري أو لا تدري تهتك اللحمة الثقافية الأوسع وتساعد على تغذية النّعرات القطرية، في الوقت الذي تعلو فيه صيحاتُ الانتماء الواسع إلى تراث واحد ومستقبل واحد.

ولكنّ ذلك لا يدفع إلى الاعتقاد بأنّ الفولكور قِوامُ الذاتية، وإنْ ضُخِّم الاعتناءُ به. ولأجل ذلك تبقى الخصوصيةُ وهماً في عالم تقاربتْ قارّاتُهُ واتّصل بعضُه ببعض اقتصادياً واتصالياً ومعلوماتياً.

ولا مجال، في أولى هذه الملاحظات، للنظر في الأسباب التي بموجبها تحلّلت الثقافاتُ المحليّة. ولكن لا بأس من الإشارة إلى أنّ التحوّلات الكبرى التي شهدها العالمُ في هذا القرن ـ وكانت من رحم نقلات نوعيّة جبّارة في فهم الكون، وتأسيس رؤية جديدة للإنسان والوجود في القرون السابقة عليه ـ قد كان لها النفوذُ الهائل في تحجيم الحضور الثقافي المحلّي وتوسيع مجال الثقافة الكونيّة.

ولا بأس أيضاً من التّنبيه إلى أنّ مفهوم الثقافة الكونيّة قد كان في الأصل مفهوماً خاصّاً بالثقافة الأوروبية أوّلاً والأمريكية ثانياً. ذلك أنّ التحولات التي ذكرناها تَمّ تنفيذها في بيئة حضارية أوروبية كانت قد تهيّأتْ لِتُحْبَل بالمدلولات الجديدة ولتُخْصِبَ المفاهيمَ التي غَيَّرتْ بنيةَ العَقل الأوروبي تغييراً جذريّاً، وقَلبتْ رأساً على عقب تياراتٍ فلسفيّةً كانت تُخْلِصُ لقيم وأخلاقٍ وجماليات تمنعُ انطلاقَ النّص نحو تمثُّلِ الواقع والتاريخ والإنسان تمثُّلاً فلسفياً ثوريّاً أيْ حداثياً.

وهل من سبيل إلى الموضوعيّة التاريخيّة دون التذكير بأمر ذي شأنٍ، وهو أنّ إبداعات العقل الغربي، التي أطاحتْ بِبُنَى الثقافة المسيحيّة/الإقطاعية[٣]، قد كانت المحرّك

---

١ ـ الثقافة مفهوم عُرِّفَ من أكثر من زاويةِ نظرٍ نفسيّةٍ واجتماعيةٍ ماركسيّةٍ وغربيّة. ويعنينا من كلّ ذلك أنّها: مجموعُ ثمرات الفكر في ميادين الفنّ والفلسفة، والعلم والقانون. راجع مثلاً: مالك بن نبي «مشكلة الثقافة» **الراية**، تونس [د. ت.].

٢ ـ نقصد، خاصة، الأزياء التقليدية والدينيّة. راجع مثلاً عن حرص طوائف يهوديّة على الظهور أمام العالم في هيئة مميّزة: عبدالله رشاد الشامي «القوى الدينية في اسرائيل»، **عالم المعرفة**، عدد ١٨٦، سنة ١٩٩٤، ص ٣٠١. وراجع عن بعض التيارات الأصوليّة الإسلاميّة كتاب Gilles Kepel: **La revanche de Dieu**، Ed. Seuil، ١٩٩٠، ص ٥٧ ـ ٥٨.

٣ ـ راجع، مثلاً، عن تأثير فلاسفة النهضة الأوروبيّة في الواقع المسيحي/الإقطاعي/الملكي، جان جاك شاتلييه في كتابه المتميّز: **تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القوميّة** (ترجمة محمد عرب صاصيلا. المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٥).

الجوهريّ لظهور وضع ماليّ ومادّيّ جديد ولبروز أقطاب صناعيّة تعتمد على الآليّة المتطورة، وتنهض على نسيج معمليّ تَصْنيعي ضخم، وتركيزِ ايديولوجيا مصاحِبَةٍ تقوم على الحريّة بما هي مقوِّم من مقوِّمات الفلسفة الحداثيّة المبدعة؟

ولا مناصَّ، هنا، من استحضار الليبراليّة[1] باعتبارها حاضنَةَ تلك المفاهيم، وحاميةَ تلك المنجزات المادية، والقيّومَ على المعيار الذي تتراءى فيه المِلْكيةُ الفرديّةُ دفقاً غزيراً لتوسيع مجال المعارف، وتحقيق أقصى ما يمكن من المنافعِ.

وتحسن الإشارة، في هذا الصدد، إلى أنّ عِلْميْن بارزيْن واكبا ثورةَ المعارف وأسهما في فتح أبوابٍ نعتبرها المنافذَ التي اتسعت بها دائرةُ الثقافة الأوروبيّة، وصارت تَشْرئِبُّ إلى آفاق بعيدةٍ، وتغري النّفسَ بالخروج من ضغط السّياج الجغرافي. وهذان العِلْمانِ هما: الاستشراق والانتروبولوجيا. وربّما تقاطعت اهتماماتُها فَأَثْرى أحدها الآخر. أمّا الاستشراق فَبَحثٌ في الإنتاج الثقافي الشرقي، وذلك من خلال تحقيق أمّهات المصنَّفات التراثية ونشرها ودراستها قَصْدَ الحصول على ملامح شخصيّة الشعوب المدروسة لتمثّل نظمها وبُناها الذهنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة[2]. وأمّا الانتروبولوجيا، بروافدها الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة، فاتجاهُ بحثٍ حَقْليّ أوّلاً، واستنباطيّ، ثانياً، الهدفُ منه دراسةُ المجتمعات المعتَبَرَةِ بدائيةً وفَحْصُ نُظم عيشها وعلاقاتها ومبادلاتها الماديّة والرمزيّة[3].

ومن نافل القول الحديثُ عن الصلاتِ الصريحة أو الخفيّة التي بين هذين العِلْمين من جهة وبين تطلّعات الغرب «العقلاني» الممتلئ بنفسه، والمتطلّع إلى الانتشار والإغارة على الشعوب المتخلّفة، امتصاصاً لِكُنوزها وترويجاً لِمُنْتَجاتِهِ الثقافيّة والمعمليّة.. فليس الشرق سوى ضرورة حضاريّة، بعبارة أرنست رينان!

لقد كان لهذين العِلمَيْن الدَّعْمُ القويُّ حين وفّرَا للغرب خارطةً دقيقةً لثقافة الشعوب التي وقع عليه اختيارها لاقتحام بُناها ونَسْفِ نُظمها. فلقد ملك الغربُ مفتاحَ الكون بفضل الاكتشافات التي شرعَ فيها منذ القرن السادس عشر أساساً وتبلورتْ بصورة النّسق؛ فكانت الفتوحاتُ يشدّ بعضُها برقاب بعض، ويهيّئ كلُّ مجال لإخصاب المجال الآخر في تفاعلٍ لا ينتهي. وعلى الضّفاف كان الشّرقُ ينتظر لحظةَ الإغارة، وقد صار الغربُ يضيق بأرضه فيطلب توسيعاً لها، حتّى لكأنّ نهضته أكبر من حدوده وفَوْقَ أن تضبطَها جغرافيَّتُه. وبالتالي فإنّ «الحديث عن أوروبا السابع عشر والثامن عشر هو حديث عن حضارة تتنامى مقوّماتُها وتنظر إلى ذاتها وإلى العالم من زوايا مختلفة تماماً؛ ذلك أنّ أوروبا بدأتْ تؤسّس القواعد البنيويّة لمشروع اقتصاديّ واجتماعيّ ذي نزوع كونيّ»[4].

نسبة إنتاج الكتب العربية من مجموع الإنتاج العالمي أقلّ من ١٪

تُوجَدُ إذن حركتان اثنتان تطبعان النهضةَ الأوروبيّة: الحركةُ العلميّة النظريّة والحقْليّة، والحركةُ الاستعماريّة التّوسّعية. وفي هذه الحدود الزمنية والحضاريّة لا يمكن الحديثُ عن ثقافة إنسانيّة كونيّة، وإنّما الذي كان يحدث بالضبط هو التصادمُ بين ثقافتين من خلال اللقاء المباشر بينهما: كانت الثقافةُ الغازية تُخْضِعُ المغزُوَّ بما تُذيع فيه من آليات الهيمنة... وكانت الثقافةُ المغزُوّةُ تنكمش على نفسها وترتدُّ تبحثُ في ثناياها عمّا تصون به وجودَها المفكّك، ولكنّها في الوقت ذاته كانت تنظر إلى الوافِدِ بشيء من الدّهشةِ فتستغرب عظمته وتتساءل عن سرّها وعن شرعيّة القَبْسِ مِنْ إبداعِهِ المذهل.

وشيئاً فشيئاً سينشأُ التَّسْاؤلُ، وستتَخَفَّفُ علاقةُ المصادَمَةِ من عنفها الماديّ على الأقلّ، مقابل مضاء شوكةِ العنف الرّمزيّ والمعنويّ، وسيُصبح الاحتذاءُ حذوَ الغالب أمراً جارياً مِنْ خلال التّشريع له، وذلك ببيان المصلحة منه والإلحاح على وجوه الحاجةِ إليه.

---

١ ـ من الدراسات التي تناولت «الليبرالية» بعمق كتاب Georges Burdeau: **Le Libéralisme**، مطبوعات Seuil ١٩٧٩.

٢ ـ لمزيد من التّوسع يمكن العودة الى إدوارد سعيد: **الاستشراق** (ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٧٧). وكذلك إلى مقال أنور عبد الملك: «الاستشراق في أزمة» (ترجمة حسن قبيسي، مجلة **المستقبل العربي**، السنة الخامسة، آذار ١٩٨٣). وكذلك إلى مقال علي شعيب: «الاستشراق وكتابة التاريخ» (مجلّة **الفكر العربي المعاصر**، عدد مزدوج ٧٠ ـ ٧١، سنة ١٩٨٩).

٣ ـ لمزيد من التوسع يمكن العودة إلى كلود ليفي ستراوس: **الفكر البرّي**. ترجمة نظير الجاهل.. وكذلك إلى جورج بالانديه: **الانتروبولوجيا السياسيّة** (ترجمة جورج أبي صالح. مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٦).

٤ ـ محمد نور الدين أفاية: **المتخيّل والتواصل ـ مفارقات العرب والغرب** (دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٠٤).

وليس بِدْعاً، هنا، القولُ إنّ التقليدين ودُعاةَ المحافظة على الذاتية قَدْ فَقَدُوا كثيراً من مواقعهم رغم ما كانوا يؤجّجونه من خصومات وما يبثّونه من تبديع أو تكفير، ورغم إصرارهم على ما كانوا يدّعون بأنه ضمير الأمّة وعنوانُ بقائها.

لقد قرّر ابن خلدون منذ عهد بعيد أنّ مآل المغلوب تقليدُ الغالب، بقطع النظر عن مترتبات ذلك، وأنّ ذاك المآل ضرورةٌ وحتميّةٌ نفسيّةٌ وتاريخيّةٌ لأنّ المغلوب ـ وقد أصابه الوهنُ وأدهَشَهُ الغازي المتطوِّرُ ـ ليس من سبيلٍ سالكةٍ أمامه سوى إقناع الذات بالاندماج في ثقافة الغالب أو الاقتراب منها قَصْدَ فهم آليّات إنتاجها المعارفَ، وقَصْدَ الوقوف على العوائق الذاتيّة التي عرقلت الشرقَ فلم يَحُزْ ما يصدّ به الغازي وتقدُّمَه.

وهكذا تشكّل السؤال المنهجيُّ والفلسفيُّ المركز (وقد فَقَد حرارته بحكم ما لاكَتْه الألسنُ وتَحبَّرت به الصحائفُ) عن سبب التقدُّم وعن معوِّقاته. والظاهر أنّ التوجّه الأكثر فاعليّةً في السعي نحو نحتِ ملامح الثقافة الشرقيّة الراهنة هو الذي رأى الإفادةَ من الآخر مطلباً ملحّاً يُدخل الشرقَ حركةَ التاريخ وينتشله من غيبوبة حضاريّة طال أمَدُها. وقد نهض بهذا التوجّه ـ الذي صار خطاباً ـ أعلامٌ مشهورون سواء أكانوا من أولئك الذين وُضِعوا في خانة السلفيّة العقلانية[1]، أم من أولئك الذين نبذوا الأقنعة وأعلنوا آراءهم صريحةً في غير مواربةٍ أو لَبْس[2].

ولا أحْسَبُ أنّ المرْءَ يَذهبُ شططاً حين تلوحُ له دعواتُ هذا الاتجاه عاجزةً عن التحوّل إلى مشاريع نقديّة حقيقيّة وإلى بداياتِ تأسيسِ معارفَ حديثةٍ تكون الأرضيّةَ الخصبةَ التي تحمي الشرق من نفسه ومن غيره: تحميه من نفسه بإخراجه من جموده وجَهْلِهِ وماضويّته الزائفة... وتحميه من غيره المُقْبل علي بشراهة المُبْتَزّ الذي يسعى إلى إبقاءِ الشرق حيث هو وإلى جعله مستلَباً وممحوَّ الذاكرةِ الحيّة المنتجة؛ وقد يُبدي نحوه اهتماماً فيصوِّره مشوّهاً ويخرجه إخراجاً عجيباً، ومُسْتَنَدُهُ في ذلك هو البعدُ الغرائبيّ وما ينطبع في مخياله عمّا يعتقد أنّه الشرق[3]. فيلوح الشرق «في الوعي أو اللاوعي الغربي مزدوجاً: شرقاً مُلْغًى كمجتمع وكحضارة، وشرقاً معتَرَفاً به كأسطورة وكحلم»[4].

هل «الثقافة العالمية» تخدم العالَمَ، وهل «الكونيُّ» اليومَ ثقافة أم أيديولوجيا؟

دعواتُ التحديث، إذن، اختراقٌ جريء للذهنية العاميّة وعلامةُ وعيٍ بأنّ الحضارة لا تكون إلاّ إذا كانت حركيّةً إنتاجيّة متناميةً، ومتطلّعة دوماً إلى المستقبل **وجهةً**، وإلى عقلنة التعامل مع الإنسان والأشياء والتاريخ **منهجاً**، وإلى جعل الإنسان من حيث كونُه فرداً حرّاً **غايةً**[5].

ولكنّ هذه الدعوات، كما ألمعنا سابقاً، لم تدرك الهدفَ الأسمى، وهو خلق عقليّةٍ جديدة بدل الذهنية السائدة. فهي سرعان ما تحوّلتْ إلى تيار ثقافي دعائيّ لا يتجاوز في أكثر الأحيان الاحتفاءَ بالشعارات وإقامةَ المهرجانات الخطابيّة. وهذا التيار، حين انزلق إلى هذه المتاهة، فَقَدَ عمقه، أي مداه الفلسفيّ، فأضحى ايديولوجيا سياسيّةً هدفُها مهاجمةُ الثقافة العاميّة عوض مساعدتها على التحرر من أغلالها[6]؛ والأصل أن ينصبّ كلُّ جهده على محاولة عقلنة التصور والسلوك. ولا يمنع ما كنا نتناوله من قيام نسيجٍ من المدارس الحديثة ورغبةٍ في اعتماد مناهجَ قوامُها: الملاحظةُ والتحليل والاستنباط لتدريس المعارف العصريّة. كما تبع ذلك إنشاءُ مؤسساتٍ جامعيّة في اختصاصات متنوّعة[7] ترمي فلسفةُ بعثِها إلى قلب التصوّرات البائسة وتكوين متعلِّم قادر على التعامل مع العصر وتعميق النزعة النقدية والعقلية التي شرعت المدرسةُ تصقل بها روّادها.

والثابت أنّ ذلك لم يُنتج الثمارَ الموعودة ولم ينجح نجاحاً محموداً في تنفيذ مخططاته. وربّما لم نجد في الشرق، بحكم الذهنية الرائجة، حماساً من بعض السيّاساتِ الوطنيّة إمّا

---

١ ـ من أمثال الأفغاني وعبده ورشيد رضا وخير الدين التونسي وعلي عبد الرازق.

٢ ـ من أمثال لطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى ومثقفي لبنان من المسيحيين.

٣ ـ راجع دراسات مهمّة تُعْنى بالمتخيّل الغربي وكيف رسم الشرق، لصاحبها Thierry Hentsch: **L'orient imaginaire: La vision politique occidentale de l'Est méditérannées** (مطبعة Minuit، ١٩٨٨).

٤ ـ محمد نور الدين أفاية: **المتخيل والتواصل**، مرجع سابق، ص ١١٠.

٥ ـ راجع عن «الفردية» في النهضة الغربية G. Burdeau في كتابه السابق ذكرُهُ. فصل «L'individualisme»، ص ٨٨، وما بعدها.

٦ ـ راجع عن العلاقة المتشنّجة بين الثقافة العالِمَة والثقافة العاميّة دراستنا: «الثقافة العاميّة وموقعها في قضايا النهضة العربية»، مجلّة **الحياة الثقافيّة**، عدد ٧٤، أفريل ١٩٩٦.

٧ ـ أنظر نسيج الجامعات العربيّة في مقال يوسف حلباوي «تحديث مؤسسة التعليم»، مجلّة **الوحدة**، عدد ٨٥، أكتوبر ١٩٩١، ص ٦٤.

لانعدام المؤسسة التي هي من وحي فلسفة حداثية حقيقية، وإمّا لانصراف بعضها إلى التآكل مع بعضها الآخر في نزاعات عديدة مصطنعةٍ محلياً أو دولياً لأسباب متنوّعة.

وإنّ ظهور إحصائيات قامت بها جهاتٌ مختصّةٌ أو أنجزها باحثون مدقّقون من شأنها الكشف عن علاقة العالم بالمعرفة إنتاجاً واستهلاكاً، وعن حظّ الشعوب المتخلّفة من ذلك. وليس أمام الدارس المقارن إلاّ أنْ يذهل للهوّة الصارخة بين الغرب والشرق: فقد أعلنت اليونسكو أنّ نسبة إنتاج الكتب العربية من مجموع الإنتاج العالمي لم يتجاوز سنة ١٩٧٠، ١,١٪، وستتقهقر النسبة ١٩٨٦ لتنزل إلى مستوى ٠,٩٪ «وهي نسبة صادمة على أكثر من صعيد بالقياس إلى عدد السكان وإلى ضخامة الشعارات التي لا تكفّ السلطة العربيّة عن تكرارها»[١]. ويمكن رصد النصيب الثقافي العربي في مسائل أخرى كالجرائد والورق والأفلام والراديو والتّلفزة[٢]. وإنّ مثل هذه الإحصائيات على غاية من الأهمية لأنّها تسلّطُ الأضواءَ على الإنتاج من جهة وعلى الاستهلاك من جهة ثانية، ونعتقد أنّ الانتباه إلى العلاقة الجدليّة بين الإبداع والإقبال عليه محرارٌ تُقاس بفضله درجةُ ثقافةِ شعبٍ من الشعوب، لأنّ «دور العلوم في النهوض بالمجتمع لا يقلّ أهميّة عن دور المجتمع في تطوير العلوم والتقنيات. وهذا الترابط الجدليّ يقدّم صورة جليّة عن أهمية العلم والتكنولوجيا في تجديد المجتمع إمّا مباشرة وإمّا بكيفيّة غير مباشرة. كما أنّ تنمية منظومة العلوم والتكنولوجيا العربيّة ودمجها العضوي بالمجتمع يشكّلان جزءاً رئيسيّاً من المشروع الحضاريّ المتكامل للمجتمع»[٣].

وليس المقام يسمح، هنا، بالتدقيق في حدود النجاح وأسباب الإخفاق، وإن كنّا لا نودّ أن نمُرّ على الأمر دون الإشارة إلى أنّ اختلافات عميقة شقّت الدّراسات الخائضة في الثقافة التحديثية. وننتخب رأيين من جملة الآراء، أحدهما يرى العلّة في عدم الانسجام بين الواقع الاجتماعي من ناحية ومرجعيّة التحديث التربوي من ناحية ثانية: «[إنّ] النظام التربوي... في شكله ومحتواه وطرائقه نظامٌ وافد وغير مرتبط بالنظام الاجتماعي المعاش [كذا]. ولقد نشأ النظامُ التربويُّ الحديث مع فترة المدّ الاستعماري ليحقّق مصالح النّخبة ويُزّيف وعي الناس»[٤]. وأمّا الرأي الثاني فيحصر المأزق في اللغة، لأنّ العربيّة ليس لها الإشعاع الذي يجعلها تُسهم في صناعة الثقافة العالميّة: «[إنّ] الانتماء اللغوي العربيّ هو أكبر حاجز اليوم ضدّ الثقافة لأنّ كُلّ ما يُعمَلُ اليوم من مؤلفات في هذه اللغة لا يقدِّم ولا يؤخِّر، في شيء، في الحضارة العالميّة. ربّما كانت له، بمعنى ما، فائدةٌ محليّة لهذا المجتمع العربي فقط. أمّا إذا كان عند أحد المبدعين فكرةٌ أو نتاج فنّي، فلا بدّ له كي يُوصِلَهُ إلى الآخرين، من لغة أجنبيّة... لذلك فإنّ كلّ الأعمال الفكريّة والفنيّة عندنا هي محليّة ليس لها دور في الحضارة العالميّة»[٥]. ويتمادى هذا الرأي في نزعة تشاؤميّة عميقة، فيقترح مفتاحَ الدخول إلى الحضارة العالمية: «إذا كان العرب يريدون أن يتماشوا مع حضارة القرن العشرين ـ ناهيك بالقرن الواحد والعشرين ـ فالأجدى بهم أن يُترجِموا الروائع الأجنبيّة... لا أن يؤلِّفوا»[٦].

بقطع النظر عن التوتر الحادّ في الشّاهِدَيْن المذكورين وعمّا فيهما من مبالغة وهِنات واضحة، فإنّهما يحيلان على الوعي بأنّ الثقافة العالميّة لا تتأتّى عالميّتُها من اشتراك شعوب العالم في تكوينها، وإنما تجيء من حيث كونُها الثقافةَ الأقوى التي نجحت في أن تكون عالميّة، أي أن يمتدّ شأنُها في كل أنحاء العالم وأن يقبل العالمُ ـ طوعاً أو كرهاً ـ الاندماجَ فيها والتلبُّسَ بقيمها ومعاييرها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن هذا الوعي بالمأزق وبقصور الثقافة الشرقية (وغيرها من الثقافات التي في وضعها) عن اقتحام العالَمِ والتأثير فيه، لا بأس من ضَبط جملةٍ من الأسئلة ليست بالضرورة جديدةً وإنّما خطورتُها تتأتّى من أبعاد الدّمج الثقافي في الكُلّ الثقافي دون مساءلةِ الذات عن جديّة إسهامها، وعن حضورها كيف يكون: هل هو حضور فاعل أم حضور رَقْميّ تزداد به الثقافةُ العالميّة عتوّاً وتجبُّراً بما تفتكّه من الكيانات الرقميّة من أصوات تابعة؟ وهل الثقافة العالميّة تخدم العالم فعلاً أم هي ثقافةُ أمّةٍ أو بعضِ أممٍ صارت الثقافةَ النّموذج بما تيسّر لها من معارف واكتشافات وبما ملكتْ من سلطان إعلاميّ تواصليّ رهيبٍ من خلال

---

١ ـ محمد نور الدين أفاية: **المتخيل والتواصل**، مرجع سابق، ص ٨٤.

٢ ـ راجع الجداول الدقيقة التي في مقال أحمد الرضاوني «الثقافة كصناعة»، مجلة **الوحدة**، عدد ٩٢، ماي ١٩٩٢، ص ١٠٠ ـ ١٠٤.

٣ ـ سالم يفوت في مقاله «التجديد العلمي ومأزق التبعيّة»، **الوحدة** عدد ٩٢، ماي ١٩٩٢، ص ٤٠.

٤ ـ شبل بدران في مقاله «غزو ثقافي أم تبعيّة ثقافيّة»، مجلة **الوحدة**، عدد ٩٦، سبتمبر ١٩٩٢، ص ٩٣.

٥ ـ عادل فاخوري: «الهويّة ـ لعبة الانتماء»، مقال منشور في مجلّة **مواقف**، عدد ٦٥، خريف ١٩٩١، دار الساقي، لندن، ص ٥٢ ـ ٥٣.

٦ ـ المرجع نفسه، ص ٥٣.

قنوات الاتصال والأقمار الصناعيّة التي تُمطر العالم في كلّ حين وآن بالأخبار والمواقف والتأويلات: إمّا تراه حسَناً فتحسنه وإمّا تراه سيّئاً فتُبشّعُه؟[1] ولكنّ السؤال الأهمّ في نظرنا اليوم هو: هل الكونيُّ اليومَ ثقافةٌ أم ايديولوجيا؟

كان العالمَ قبل الحربيْن وأثناءهما يُهَيْمن عليه الغربُ الأوروبيّ. ولم يكد العالَمُ يَطوي صفحات الحرب حتى ظهرتْ أمريكا يُغريها العالم الممزّق فتتقدّم إليه تأخذ منه مساحات، لا من ترابه، ولكنْ من عقله ووجدانه. ولم يمرّ طويل وقت حتى كان العالمُ بين ثقافتين كبيرتين نزّاعتين إلى الهيمنة وهما: الأمريكية الرأسماليّة والروسيّة الشيوعيّة. وبدأ ما يُسمّى بالحرب الباردة: صراعٌ ايديولوجيّ قويٌّ ممتدّ إلى الشعوب المتخلّفة يحاول أن يصطنعها إمّا لحساب هذه القوة وإمّا لحساب تلك. وقد كانت حركاتُ التحرر القوميّ، مع عمق إيمانها بقضاياها الوطنيّة، لا ترى ضيراً من النسج على منوال الكتلة الشيوعيّة أو الكتلة الرأسماليّة؛ وإنْ شئنا التدقيق قُلنا إنّ تلك الحركات كانت مبهورةً أو متأثّرةً إمّا بالشيوعيّة وإمّا بالرأسماليّة. ولا تعنينا النتائجُ المحصّلة لأنّها ليست من أهداف هذه الدراسة، ولكننا أحببنا فقط أن نُتابع بسرعة المسار التاريخي الذي سيفرز لاحقاً الثقافةَ العالمية.

إلى حدود ما انتهينا إليه، إذن، وقفنا على ما مفاده أنّ النهضة الأوروبيّة أنتجَتْها ثوراتٌ علميّة ورعَتْها فلسفةٌ تنتصر للإنسان. كما وقفنا على أمر آخر وهو أنّ النهضة الأوروبية كوّنتْ بنيةً اقتصادية ضخمة وفيضاً من السلع المعمليّة. ووقفنا أيضاً على أمر ثالث ناشئ وهو الحركة الاستعمارية التي مِنْ مخلّفاتها بروزُ الكتلتيْن المذكورتيْن وانجذابُ حركات التحرر الوطني إليهما. ومن المهمّ أن نشير إلى أمر رابع هو أن الحضور الأوروبي قد تراجع أثناء الحرب الباردة، وظلّ فيها الشرقُ مستضعَفاً لا إسهام فعليّاً له في تشكيل ملامح العصر*.

٢ ـ العولمة الثقافية...

بقلم: حواس محمود

لم تعد الثقافة اليوم خاضعة لوسائل تقليدية في النشر والانتشار، وإنّما أضحتْ متأثرةً إلى حدٍ بعيد بالتكنولوجيا عامة والتكنولوجيا الاتصالية خاصة. ومن هنا جاء مصطلح «العولمة الثقافية»، ويعني قدرةَ الثقافات الأقوى تكنولوجياً على السيطرة على الثقافات الأضعف تكنولوجياً؛ ويعني بصورةٍ أوضحَ محاولةَ مجتمعٍ مّا تعميمَ نموذجه الثقافي على المجتمعات الأخرى من خلال التأثير على المفاهيم الحضارية والقيم الثقافية السلوكية لأفراد هذه المجتمعات، وذلك بوسائل سياسية واقتصادية وثقافية وتقنية متعددة.

بعضُ المحطات التلفزيونية الفضائية تمتلك موارد تفوق ميزانيات بعض الدول

وتهدف العولمةُ الثقافية إلى زرع قيم القوى المسيطرة وأفكارها في وعي الآخرين، وعلى الأخص أبناءِ المجتمعات العربية، وإلى فتح هذه المجتمعات (أو اختراقها ثقافياً) وإسقاط عناصر الممانعة والمقاومة والتحصين لديها. وتستهدف بالمعنى الثقافي الحضاري إعادةَ صياغة قيم وعادات جديدة لهذه المجتمعات، ووسيلتها الأساسية في ذلك أداةٌ إعلاميةٌ جبارةٌ. وإذا كان عالمُ النفس الأمريكي الشهير «سِكِنِرْ» قد أشار قبل عقود في كتابه **تكنولوجيا السلوك الإنساني** إلى إمكانية ضبط سلوك الإنسان بالطريقة التي يُضبط فيها سلوكُ حيوانات السيرك، مركّزاً على دور الأسلوب المشوّق والجذاب في ذلك الضبط، فإنّ العولمة الثقافية أصبحت تمارس نوعاً من التحكم بسلوك الأفراد والمجتمعات رغم بعض أشكالها الجذابة.

ولهذا لم يعد مستغرباً أن تمتلك بعضُ المحطات التلفزيونية الفضائية مواردَ تفوق ميزانيات بعضِ الدول النامية، أو أن تصل ميزانيةُ فيلمٍ سينمائي إلى مئات الملايين من الدولارات. إنّ مراكز المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات هي التي تمتلك اليوم مفاتيح الثقافة، ولذلك نجحت الدولُ الغربية في نشر ثقافتها عبر المحيطات والقارات، والترويج لأفكارها وقيمها الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية على حساب اكتساح الثقافات الوطنية. ويُعتبر اكتساحُ الثقافات الوطنية نقطةً رئيسية من ثلاث نقاط لتبيان آثار العولمة الثقافية، وقد حدّدها المفكّر الدكتور برهان غليون في ندوةٍ عقُدتْ في القاهرة عام ١٩٩٦ بعنوان «مستقبل الثقافة العربية»، حين قال إنّ العولمة الثقافية تقوم بتعميم أزمة الهوية، فيتضاءلُ ـ مع تزايد الثقافات الأقوى في فضاء

---

١ ـ راجع مثلاً عياضي نصر الدين «الخطاب الصحافي في الاستعماري في ظروف الأزمة»، مجلة **المستقبل العربي**، جانفي ١٩٩٣.

* ـ إلى هنا ينتهي البحث، وإن كان السياق يوحي بأن ثمة أوراقاً ناقصة. فاقتضى التنويه (**الآداب**).